

اعترف القاتل

لمجي دفت سرباست
بمقام الأدب تبلي للثقف حسن الرواة

شاب في العقد الثالث من عمره .. مربوع
القامة، أشقر الشعر .. أزرق العينين .. وقد
عرف بين أهل القرية أنه النجار الأمين
الذي يعمل في حانوته بحمد ونشاط دون
أن يعكر صفو أحد

فاندفع أمام قاضي التحقيق وقال :
سيدي القاضي : أنا المجرم .. أنا القاتل
الذي نفتشون عنه ، ولم تهتدوا إليه ، فانظر
ماذا تأمر ...

فدهش القاضي لهذه الجرأة .. فابتدعه قائلاً:
كيف تكون القاتل ، وهل سبق أن
عرفت القاتلين ؟

فأجاب الشاب دون وجل :
نعم .. لقد عرفت الرجل منذ عامين ..
أما المرأة فلم يعض على معرفتي بإياها أكثر
من ستة أشهر ... كأننا يترددان بين حين
وآخر على حانوتي ... يشتريان مني بعض
ما يحتاجان إليه ، أو يطلبان إلى أن أصلح
لها أثاث منزلها ...

فسأله القاضي : إذن لم أفدمت على قتلها ؟
فأجاب : قتلتهما لأن نفسي سوت لي

زناعت القرية .. وعقلت تفكير أهلها
حيرة خرساء . فراحوا يتسائلون ، مشدوعين
مستفسرين عن الحادث الذي وقع ليلة أمس
إذ وجدوا أصباحاً ضحيتين رجلاً وامرأة غدر
بهما مجهول ، قطعتهما بخنجر وأرداهما قتيلين
وبعد التحقيق عنهما .. والكشف
عليهما .. تبين أنهما من كبار أغنياء المدينة
المجاورة للقرية ، ومن أولئك الرموقين بين
أهلها ، ولم يكن قد مضى على زواجهما عام
وذلك عندما تزمت المرأة من زوجها الأول
وذهب اعتقاد الناس إلى أن القاتل
رجل شغف بحب المرأة ، وهام وجداً بها ؛
فلما لم يحط بها انتقم لنفسه وثار لجه

وبالرغم من فرض الرقابة الشديدة ..
والفتش المستمر في أنحاء القرية .. لم يثر
على أي أثر للقاتل

مضب أسابيع كادت الجريمة خلالها
تنطوي ، تسى إلى الأبد . دون أن يعرف
القاتل أو تهتدى إليه ، فظن يرتع في
ربوع الحماة دون أن يمسه أذى
وفي أحد الأيام ، دخل مكتب التحقيق

أن أفنلهما ...

وحاول القاضي أن يستفسر منه أكثر من ذلك ، ولكن الشاب امتنع عن الإجابة عن الأسئلة التي وجهت إليه ونحروا ماضي الشاب فتيين لهم .. أنه جى به إلى القرية وهو طفل صغير ، فبنته إحدى المرضعات حتى كبر وشب وأقن في هذه المدة صناعة النجارة ، كما عرف بين الناس بخلق القويم ، ونشاطه في عمله ووداعته وانظرائه على نفسه حتى أطلقوا عليه لقب الزاهد

وبنتت النهمة عليه فأحبلت قضيته على حكمة الجنايات .. وأراد المحامي أن يتقدمه من ورطته فوصفه بأنه معتوه ، فكان مما ذكره في دفاعه عنه قوله :

من المستحيل أن يتصور عقل أن يهدم هذا الزاهد الأمين على القتل ، فيقتل بمجرد أن سولت له نفسه ذلك ، مع أن القتلين كانا من خير زبائنه .. وقد ربح منهما مبلغا يتجاوز ألفي فرنك .

إن مثل هذا الرجل الذي لم بمكر عيش أحد ، ولم يقدم يوما من الأيام على أذى أحد ، جدير أن نمكر فيه مليا ، ونرى أنه ليس من المألوف أن يقدم اليوم على قتل اثنين

وفرغ المحامي من دفاعه ، فالتفت الرئيس

إلى التهم ، وسأله : أليك ما تذكره ؟

فأدأ الشاب برأسه ، ووقف وراء قفص الاتهام وكانت الأنظار تنظر إليه في تساؤل ، ووقع التهم رأسه ، وقال بصوت جهورى يبعث منه رنين الشجاعة والهيبة ... :

سيدى الرئيس ... حضرات المحلفين .. والمستمعين ...

إنى لا أَرْضَى أن يحكم على بالته ، ولا أقبل هذه السفاهات التي يرددها بعضهم لتبرئة ساحتى على حساب تشويه سمعتى وامتهان كرامتى . أريد أن أعترف بالحقيقة الواضحة ، وأجلى الشك من نفوس الناس كي لا يمتري أدهانهم أى ليس ولا أى استفهام ...

فأنا أفضل الموت فى ظلال العر والشرف ، على حياة ملوها بالخزي والعار . فأنتصروا إلى ، ثم انطأوا بالحكم الذى ترونه ووقف عنيفة يحمل الطرف فى المضور كأنه يبعث من أسبق الذكرى حوادثه التى وأدها الماشى فى حياته ... والتفت إلى الرئيس وقال :

ما إن قدمت عسى للنور حتى دفعتنى أمى إلى إحدى مريضات هذه القرية ، وأقستنى عنها ، وأبعثتني من صامها . ثم امتنعت عن أداء أجره ... فأخذت هذه

أمل المستقبل ، ويداعبن رجاء الغيب
وهن ينصتن إلى بكاء أطفالهن

ولو كان حبيهما - حب أبي وأمي -
قائماً على حطام منزل زوج أمي الأول
لسمدت بحبياء غنية بالسعادة والهناء
يكفنها حنان الأمومة وظلالها رافة الأبوة
ولكنهما افترقا على أنقاض حبيهما الزائف
فكبت الضحية البريئة ... وأصبحت في
هذه الحياة وحيداً متريداً طريداً

كان الواجب يقضى عليهما أن يحيا
ولكنهما أفضى فينداني عليهما وأقصاني
يقولون إن الرءوس مدين لوالديهم بالحياة ، ولكن
هل تمتلئ حياتي ... حياة التشرد والمهج
حياة لا وهل أدخلت في نفسي غير المداوم
والبعضاء للذين الذين تمنيا موتي ، فينداني
وأنا طفل في المهد ...
يا سادة

إذا هاجمك سارق ومد يده إلى جيبك
وأراد أن يسلب منك مامعك فربما قاصصته
وإذا دغم بيتك أحد وشنمك ... لا تنقم
لنفسك . وإن خالك إنسان أو جردك من
الشرف والحريية ... حاولت أن تأخذ حقك
السلب منه

أما أنا فقد جردني والداي من شرفي
وسلبا مني حريتي وعزتي ... ومرة باسمي ثم
أسقطا حياتي نبدما ياي وعدم اعترافهما لي

رغاني . وتتعهد تربيتي إشفاقاً على . ورجة
بطفولتي الشردة . وقدمت لي الحبة والحنان
الذين حرمتهم من أبي التي تشكرت لي
وهكذا حتى كبرت وشبت فإذا بي
بعدما أصنيت إلى مدى نفسي خالجي
إحساس مريب . وخامرني شعور غريب
هو أنني لست كابل الشرف والكرامة
وأن الكلمة التي كان أصدقائي في المدرسة
يرددونها عني ، ما تزال ترن في أذني ، فتثير
كوا من الغيظ والألم في نفسي ، تلك
الكلمة هي - « لقيط » ، لكنني أعذرم
لأنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد ما تنطوي
عليه هذه الكلمة من معان ، إلا أنني
أشعر بسوء وقمها في نفسي ، وفتح طامها
في حياتي . غير أنني كنت أنجلد ولا أظهر
غيظي وإن كنت قد أحسست في ذلك
الوقت أن تلك الكلمة قد نهشت في
سويداء قلبي ، فأحدثت أعلم أنني ثمرة حناية
والدي الذين أهدما على الإثم ، فكنت
ضحيتهما البريئة

إز الآباء ينتظرون غارخ صبرهم أن يجنوا
الثمرة التي تنهها الحياة لهم ، فهم يسيخون
بنفوسهم إلى أصوات أبنائهم

إن الأمهات يقبلن على حياة الأمومة
بقلوب مقعسة سرورا وجوارح تترقق
حبورا ، ويهددن سرور أطفالهن ، بتاعين

ألقى بالا إليه

وبعد أيام طلب مني أن أصنع له مقعداً .
ومما أدهشني أنه كان يدفع لي القدر الذي
أطلب منه دين أن يساومني ، كما كان يخاطبني
بلمحة . لمؤد الرقة والحسان مما حفظت له
من أجل ذلك حباً في قلبي وأضمرت له إحلافاً
في عملي

وبعد مدة جاءني برفقة امرأة قال ليها
زوجي . لما دخلت حانوتي واقعدت مقعداً
حتى بدت علام الاضطراب تظهر حالية على
وجها ، فاعتقدت أنها غليظة ، وكانت كل
نظراتها تصور بها نحوي ، وكنت كلما سألتها
عما أصنع لها وكيف ! أجابني : نعم . ولا تزيد
على ذلك كلمة ، وبعد ان غادرا الحانوت ..
وانصرفا عني اعتقدت أنها مصابة بخجل
أفقدتها التذكير

وبعد أيام عادت تلك المرأة برفقة زوجها ،
وكانت في هذه المرة أثبت جرأة ، وأوفر
شجاعة من المرة الأولى . وجلست تسألني
أن قصيت سر رحلة الطفولة ؛ وكيف كانت
حياتي ، بين هما والداي .. و..

فرحوبها الانسألني عن والدي

ولا عن حياتي التمه

فناث : ولم ؟ أهناك ما غفلك أمك
تحدثني عن والدك ؟

قلت : نعم ، فقد أجروا في حق ، ولذلك

لقد كنت خدوعاً بشرفي من قبل ؛ أما بعد
ما تبقت أن جريعتها هي أشنع ما ارتكبه ،
وأن خطيئتهما لا ينفهما أحداً ، صممت على أن
أنتقم ؛ لأني علمت أن حريتي المساوية تدفعني
إلى أن أقتل نفسي وأغسل بدمهما العار الذي
لطفنا به سمعني

ربما تقولون ... إن قتل الوالدين جريمة
شنعاء ؛ لكن الوالدين الذين يبدان وابدهما
صغيراً ، وبشرده في مجاهل الغيب طفلاً ،
لا يحق لهما أن يكونا والدين !

لقد عاشا في كنف حبهما الرغيد ...
وبعداني في صدام الشقاء المتبذل ليحوا عن
سجل القضاء عازها بولادتي ... ولذلك
قررت أن أجازيهم بالمثل ... فأخو العار الذي
الحقاه بي ، بأبني مجهول الأبوين . لفيط !
سادني

لقد كانت فكرة الصفيح عنهما تخامر ذهني
فكنت على وشك المفو . فأبأ لهما المحبة
والوئام ، وأشاركهما العيش والحياة ، دون أن
أبوح بسرهما ، ولكنني اضطررت إلى أن
أقصي هذه الفكرة عني .. وأن أقدم على
الانتقام

منذ سنتين جاءني رجل في الحانوت
ولم يسبق لي أن رأيته من قبل ، وطلب مني
أن أصنع له مائدتين ، وعلمت أنه استنجر عني
قميس القرية فاستعربت أمره ، ولكنني لم

لا أريد أن أنكأ جروحي ، فهما في نظري
من المجرمين ولا ينفر جريتهما الشنعا .
إلا الانتقام لقد نبذاني صغيرا وشرداني
طفلا دون أن يرفأ لبرائي .

وما إن سمعت المرأة مني ذلك حتى اصفر
لونها وزاغ بصرها وانطرحت على المقعد
خائرة القوى منشيأ عليها ؛ فتدأ كنتي دهشة
مما رايت ، فسألت نفسي أتكون هذه أمي تلك
التي هجرتني ، ولم نمطف علي ؛ بل انطلقت
وراء جها .. طائشة ؟

ولما أفاق من إنغماسها أسندها زوجها
إلى ذراعه .. وانصرفا

جلست في الحانوت وحيدا مفكرا في أمر
تلك المرأة وذاك الرجل . وانتهى بي التفكير
الطويل إلى أنهما والداي

فالمرأة هي أمي ؛ أما الرجل فهو أبي بعينه
وفي أحد الأيام عادا معا إلى الحانوت
فلمست الاضطراب والقلق في قصبات
وجه المرأة . وقبل متادرنهما الحانوت قالت :

إنني أدعو لك بالتوفيق والتقدم المطرد
في أعمالك ؛ لأنني ألع فيك حسن الخلق
وطيب النفس وصفاء السريرة .. وها أنذا
أقدم إليك هذا المال الزهيد كي تقضي به
حوائجك ، وتستعين بواسطته على تمهيد

طريق مزدهر لمستقبلك

وناولتني بضع ورقات من المال بينما
كان نظري معلقا بها لا يحيد . ودون أن أشعر
صحت بها . أمي ! أنت أمي !

فارتاعت مني وابتعدت عني وجهت
عينها ، وهمت بالبكاء ، بينما أسرع الرجل
إليها وأخذها بين ذراعيه وصاح في وجهي
أمعتوه أنت ؟ هل فقدت رشداك ؟

فأجبت بصوت خافت :

لا ، لست معتوها . لقد تبينت أنك
أبي وهذه أمي ، فاعترقا بأسكا والداي ، وإنني
أقسم أسكما ألا أبوح بسركما ، ولا أخون
ودادكما ..

وسحب الرجل امرأته من يدها وهم
بالخروج ، ولكنني أسرعت إلى الباب
وأغلقتة . ثم التفت إليه وقلت : هل تنكر
أنها أمي ؟ انظر إلى حالتها وهي تبكي .
إن هذا لأكبر برهان على ذلك

فاعتناظ الرجل مني ، وارتعدت فرائصه
وتجسست الخريئة التي اقترفها أمام ناظريه ؛
ورأى أن سره سيذيع ، وستلوكة السن
الناس . فما عساه أن يفعل ؟

فساح في وجهي : اسكت ! حقا إنك
دني . تريد أن تهمتا .. إليك . عني إليك
وغدا لثيم

قالت بنت إليه والذي وقالت : لنخرج من هنا إلى أشعر بضيق

فساح الرجل بين الفتح اليساب وبلا
أطفت أمرك لرجال الأمن ليقيموا عليك
ويودعوك السجن ليدخلوك العذاب الأليم .
فتحت لها الباب فأبرنا بالخروج
لابوليان على شيء . وما إن غابا عن ناظرى
حتى خيل إلى الشقاء الذي رافقتى في حياتى
فتمررت الحزن والأسى فبكيت ..

لقد انقلبت عاطفتى نحوهما وحبى لهما إلى
بعض وكره .. فكانت نفسى تسول لى أن
أنقم لشرى الجريح ، وأنصر لعزى وأثار
لكرامتى ، فأنتزع من حنايا صدرى لهما حياتى .
فهمت على وجهى فى سكون الليل وهديره
أسير بالقرب من الشاطئ ، أستعرض فى
غيلتى ذكريات طفولتى المحرومة التعميسة .
وبينا كنت فى لجة التفكير لهما عن
كذب فأسرعت نحوهما أستغرق السمع ،
فكانت أمى تبكى وتتجرب بينا كان أبى
يخفف من لوعتها ويدول لها : أرايت الفاجعة
التي كادت تحمل بنا فينكشف أمرنا ؟ لقد
قلت لك إن ما اقترننا من ذنب وإثم ،
لا يسمح لنا أن نقدم على ذلك ، فنتبع أثره
وهرعت نحوهما ، ووقفت أمامهما باسما
وخاطبت أبى قائلا :

ألم أقل لك بك أبى ، وهذه أمى ..
أنها والدائى . لقد نهذتما فى صغيرا فويل ترهبان

أن نظردائى ، وانتكرا إلى شأنا

مسدى الرئيس ، سادى اللطيفين

أدركتكم أن أبى رفع يده وأراد
فصرى ، ولكننى أمسكت بها ورجوتها
كنت أسأت إليه أن يغفرلى ، وليعتفنى ،
ولكنه مد يده الأخرى إلى جيبه وأخرج
مسدسا وسويه نحوى . عندئذ طار مسدسى
وفقدت وعى وجر جنونى فأخرجت مديتى
وأتممتها فى عنقه .. وفى أحشائه ، فوقع
يتخبط على الأرض ويسبح فى دمه

وأخذت أمى استغيث ، وتستجد
صائحة فى وجهى ، وكانت تغربى بكنا
يديها مما آلتى فثارت ثائرى عليها فطعننها
فى صدرها دون أن أعى ما أفعله وما أقترعه
من ذنب ..

ولما شاهدتهما جثتين لا حراك لهما
حملتهما وألقتهما فى النهر فحملتهما الماء إلى
هذه هى قصتى سردها على مسامعكم
دون أن أريد فيها أو أقصر منها ، فانظروا
ماذا ترون ..

وحلى التهم .. وأخذت تسبح العرو
الذى تسبح من جيبته بينا كان الرئيس
يشير إلى أجيل النظر فى القضية
للجلسة القادمة .

عبد اللطيف مسين الأرنؤوط